«الحاوي»، و«الأحكام السلطانية»، و«قوانين الوزارة»، وكتاب «الأمثال والحكم»، وكتاب «الإقناع»، وولي القضاء ببلدان كثيرة، وكان محترماً عند الخلفاء والملوك [وقد ذكرنا قصته مع جلال الدولة، وامتناعه من الفتوى في قولهم: شاهنشاه، وأرسله القائم إلى طُغْرُلْبَك، فأعطاه ثلاثين ألف دينار، وقد ذكرناه]، وكان زاهداً عابداً ورعاً مَهيباً، ما رأى أصحابُه شيئاً من بدنه قط، [وكان يقول: بسطتُ الفقه في أربعة آلاف ورقة.

وقال محمد بن الصابىء وغيره]: تُوفِّي بعِلَّة الفالج يوم الثلاثاء سلخ ربيع الأول، ودُفن بمقابر باب حرب، وقد بلغ ستاً وثمانين سنة [وبينه وبين أبي الطيب عشرون يوماً]، وكان ثقةً صالحاً، سيِّدَ أهل زمانه.

## السنة الحادية والخمسون وأربع مئة

فيها في يوم الخميس ثاني المُحرَّم انصرف أبو الأغر دُبيس بن صدقة عن بغداد على غضب ومنافرة، وخيَّم على صرصر، فركب البساسيريُّ إليه، فردَّه وحدَه بغير مُخيَّمه، وبلغ له بعض غرضه، وانصرف يوم الأحد رابع المُحرَّم إلى بلده غير راضٍ، وسببه أنه كان قد احتجم عن المجيء إلى بغداد لمعاونة البساسيري؛ لعلمه ما اتَّفق عليه البساسيريُّ وقريش، ووقع فتحُها، فخاف من التأخُّر، واضطُرَّ إلى المجيء، وعرف ما أُخِذ من دار الخلافة وما أخذ قريش من الأموال الجليلة والأعمال المقسومة على تأخُّره، ونقم البساسيريُّ عليه بسبب ذلك، وخاطب البساسيريُّ في أمر أبي عبد الله بن المردوسي وحاشية الخليفة، وأن يُؤمنهم على نفوسهم، ويردَّهم إلى منازلهم، فلم تقع إجابة، ونسب البساسيريُّ أبا عبد الله المردوسي أنه منع زهرة جاريته وولديها المعتقلين بالجبل من الهرب حتى التجؤوا إلى داره، وسلَّمهم إلى ابن المُسلمة، فاعتذر المردوسي وأنكر، وقال: غُلِبتُ عليهم. فلم يقبَلْ عذره، ثم طالبه دُبيس بإقطاعه من السلطان، فما ردَّه، فرحل إلى بلاده وفي نفسه ما فيها.

وفي هذا الشهر تصالح أبو منصور بن يوسف مع البساسيري بواسطة قريش، وركب البساسيري وقريش إليه، وكان قد ضمن على نفسه مالاً يحمله إليهما.

وفي هذا الشهر كتبت والدة القائم إلى البساسيري ـ من مكان كانت فيه مستترةً ـ رقعةً تشكو إليه ما لَحِقَها من الأذى والضرر، وهي جارية أرمنية قد ناهزت التسعين، فأفرد لها داراً في الحريم، وأعطاها من جواريها جاريتين تخدمانها، وأجرى عليها في كل يوم اثني عشر رطلاً من الخبز، وأربعة أرطال لحم[١].

وفي يوم الثلاثاء لليلتين بقِيَتا من المُحرَّم أصعد قريشٌ إلى تكريت ومعه خاتون بنت أخي السلطان زوجة القائم، وعميد العراق مقيداً، وكان قد راسل[٢] البساسيريُّ قريشاً في معناه، وقال: ما يجيءُ منه خير، وما في أصحاب طُغْرُلْبَك أشرُّ منه، فدعني أصلُبْه إلى جانب ابن المُسلمة، وأُعطيك من مالي خمسة آلاف دينار. فلانَ قريشٌ ـ وكان شحيحاً ـ وعلم عميدُ العراق، فراسل قريشاً وقال: أنا أفتَحُ لك قلعة تكريت، فإنَّ فيها من لا يخالفني، ثم أعطيك مالاً كثيراً، وأُنفِذُ زوجتي إلى خراسان تُحضره. فبعث إليه البساسيريُّ بسببه، فقال قريش: أنا ما أستبقيه، وقد استقرَّ أنه يدفع إليَّ القلعة [ومالاً، فابعَثْ معي صاحبك، فإذا فُتحتِ القلعةُ][٣] سلَّمتُه إليكَ فتقتله، فبعث معه سُخْتِكين أحدَ غلمانه الأتراك، ولم يعلم العميد بذلك، ولمَّا وصل قريشٌ إلى تكريت لم تكن له على فتح القلعة قدرةٌ ولا حيلة، فقال لعميد العراق: قد حفظتُ مُهجتَكَ من أبي الحارث مع علمِكَ بما تردَّد منه فيك، فراسلِ القومَ بتسليم القلعة كما وعدتني. فاستدعى قوماً من العجم، وراسلَ مَنْ في القلعة بالتسليم، فلمَّا حصلوا في القلعة اجتمع من فيها ووقفوا على سورها، وسبُّوا قريشاً ولعنوه، وقالوا: يا ملعون، أين ذِمامك للخليفة ورئيس الرؤساء وأعهُدِكَ وقد جرى عليهما ما جرى؟ وبالغوا في لعنته، وظنَّ قريش أن العميد وطن إليهم بذلك، فرحل عن البلد يوم الاثنين ثاني عشر صفر طلباً للموصل بعد أن سلَّم عميد العراق إلى سُخْتِكين، وأنفذ معه صاحباً له، فحطُّوه في سُمَّارية، وكتَّفوه وغرَّقوه.

وفي يوم الاثنين ثاني عشر صفر جمع البساسيريُّ قاضي القضاة أبا عبد الله الدامغاني وأبا منصور بن يوسف وأبا الحسين بن الغريق الهاشمي الخطيب وجماعةً من

(١) الخبر في المنتظم ١٦/ ٤٤ .

(٢) في (خ): أرسل، والمثبت من (ف).

(٣) هذه الزيادة من (ف).

وجوه العباسيين والعلويين، وأخذ عليهم البيعة للمستنصر، واستحلفهم له، وكان ذلك في دار الخليفة، وهو معهم جالس في مجلس الخليفة(١).

وفي صفر أصعدَ ابنُ البساسيري الأصغر إلى الرَّحبة للمُقام فيها، ومجيءِ أخيه الأكبر فيها، وكتب البساسيريُّ كتاباً إلى مصر مع ختِكين، وبعث أبا طالب كافور بن الملك أبي كاليجار بن بُوَيه والفِيلة الصغيرة فقط، ولم يبعث مالاً ولا غيره، وكان البساسيريُّ مستوحشاً من أبي الفرج بن المغربي وزير مصر؛ لقبيحٍ كان يبدو منه في حقِّه، وإهمالٍ لمراسلته، واطراحِ جانبه، وإزراءٍ على رسله، وصوَّر ابنُ المغربي في نفس صاحب مصر أنَّ هذا قد أخذ الأموال، واستولى على البلاد، وهو بين أمرين؛ إمَّا أن يقوى علينا فيفعلَ بنا كما فعل بالغير، أو يكون طريقاً إلى مجيء العساكر الخراسانية إلى بغداد ثم إلى الشام، وأنَّ الذي فعله ما كان برجاله ولا باجتهاده، وإنما كان بسعادتنا ومالنا، وكان في الكتاب إلى مصر: سلامُ الله على سيدنا ومولانا الإمام المستنصرِ بالله أميرِ المؤمنين ـ وصلاتُه وتحيَّاتُه ـ المُنتجبِ من العنصر الطاهر، والشيخِ ذي المفخر الباهر، والكوكب الطالع الزاهر، المستخلَص لحفظ الدين ورعاية الأمم أجمعين، أصدرَ مملوكُ المواقف المقدسة ـ زاد الله في أنوارها، وأعَرَّ(٢) كافر(٣) أنصارها ـ وأطال الدعاء، إلى أن قال: وأمكنتِ الفرصةُ في بلوغ الغرض؛ من قصد العراق، والانتقام من أهل الشقاق، وإقامة الدعوة الشريفة في الآفاق، فحينئذ سار في خَفارة(٤) أدعية المواقف الشريفة، والبركاتُ عليه غاديةٌ ورائحة، وأيدي الرشيد ليمينه معاهدةٌ مصافِحة، فكان دخولُه بغداد في يوم الأحد ثاني ذي القعدة في طالعٍ توفَّرَتْ سعودُه، وعظُمَتْ جدودُه، وانتظمَتْ عقودُه، فألفى مدينة السلام متهدِّمةَ البنيان، ساقطةَ الجدران، قائمةً على عروشها، مَرْتعاً لِبُومِها ووُحوشِها، ووجد أهلَها كما [لو] نُبِشوا من القبور؛ لما قاسوه من تصاريف الأمور، فوقع دخولُه عندهم موقعَ الشفاء من

(١) الخبر في المنتظم ١٦/ ٤٤.

(٢) من المعَرَّة، وهي الأمر القبيح والأذى والإساءة. تاج العروس (عرر).

(٣) في (ف): كافور!

(٤) الخَفارة ـ بفتح الخاء ـ: الذمة والعهد. اللسان (خفر).

الألَم، والبرء من السَّقَم، وتلقَّوه مُتنسِّمين نسيمَ السلامة، راجين افتتاح تلك الغمامة، مُتمسِّكين به تمسُّكَ الولد بالوالد، والطالب للواجد، فتعطَّفَ عليهم بقلبٍ خاشع، وطَرْفٍ دامع، ثم إنه أقام الدعوة في الجانب الغربي، وعقد الجسر وأقامها في الجانب الشرقي، وخيَّم بمكان يقال له: الزاهر، وهو على دجلةَ في وسط البلد قريب من الدار، التي احتقنَتْ فيها الآثامُ والأوزار، فآذَنَتْ بالخِذْلان والبوار، وكان أعداءُ الله الطاغون قد جمعوا ما يزيد على أحد عشر ألف نفْسٍ من التُّرك والعجم والهاشميين والخَوَل، ظنًّا منهم أنهم يُثبِتون المقارعة والمساجلة والمنازعة، إلى أن تأتيهم من خراسان نجدةٌ تُخلِّصهم من الحصار، ويكون بعدوِّهم سبباً إلى الرجوع والانكسار، وكانوا في مضايقَ لا تجول فيها الخيول ولا تتمكن، وإن كثُرَ فهو مقهور إلى يوم الاثنين سلخ ذي القعدة، فإنهم فتحوا باباً من الأبواب، ورشقوا بالنُّشَّاب، فأكبَّ عليهم الشجعان، وركبتهم الفرسان، فما كانت إلا ساعة من ساعات الزَّحْف، حتى حلَّ بهم الخَسْف، وصاروا تحت أيدي الخيول كالسحيق، ودماؤهم تنزل كالرحيق، فأجلَتِ الوقعةُ عن القتلى، وهم ثمان مئة نفس، فيهم نقيب الهاشميين والقاضي النائب عن عميد العراق، وابن المأمون، وغيرهم، فاستأمن منهم جَمٌّ غفيرٌ، منهم: العميد، وخلقٌ كثير، وملك العباسي ـ يعني الخليفة ـ وقاضي القضاة، والحُجَّاب، والأعيانُ، والأصحاب، ووقعوا كالسمك تحت الشبك، ونُهِبَتِ الدار، وأُخِذَ منها من الأموال والجواهر واليواقيت والخيل والثياب ما يكثر عددُه، ولا يُحصى أمدُه، وحُمِلَ العباسيُّ إلى حديثة عانة محتاطاً عليه إلى أن يخرج الإذن الشريف في معناه، وأمَّا ابن المُسلمة فإنه عذَّبه بأنواع العذاب، وصلبه على أقبح الوجوه، وجعله عبرةً لمعتَبِر، وموعظةً لمفتَكِر، وذكر كلاماً طويلاً، وكتب إلى العزيز كتاباً من هذا الجنس، وصادر البساسيريُّ كتابَ الخليفة والوزير وغيرهم على ألوف كثيرة.

وفي ربيع الأول خرج البساسيري إلى زيارة المشهدين، وكان دُبيس بمُطيراباذ، فراسله بأن يجعل طريقه عليه، فجاء إليه، فخرج واستقبله وأضافه، وسأله في معنى أبي عبد الله المردوسي، فاستعفاه من الخطاب في أمره، وعدَّد أشياء كانت في نفسه، ثم استقرَّ بينهما الانحدار إلى واسط، وتدبَّر أمر أبي كاليجار هزارسب ـ وكان بالبصرة ـ

إما صلحاً وإما حرباً، وعاد البساسيري إلى المدائن، وأقام ينتظر الغلمان، وأنفذ مَن ابتدأ بنقض تاج [قصر] الخليفة، فنقضت شرافاته، فقيل له: هذا ممَّا لا معنى له، والقباحة فيه أكثر من الفائدة. فأمسَكَ عنه، وجاءته كتب الوزير ابن المغربي، وكان كاتَبَ صاحبَ مصر أبي نصر بن أبي عمران بصفات[1] ما تأثَّل له من الحرمات بهذا الفتح، ولم يكتب إليه صاحب [مصر][2] جواباً.

وفي يوم السبت سلخ ربيع الأول عاد البساسيري إلى بغداد، وتلقى ابنَه الواصلَ من الرَّحبة في ثاني ربيع الآخر، وقَدِم صُحْبتَه يارَخْتِكِين الحاجب المأسور بالموصل مُقيَّداً في عَمَّارية، وضُرِبَتِ القبابُ بالجانب الغربي لابن البساسيري، وطيَّبَ ابنُه قلوبَ الناس ومحالَّ أهل السنة، وحمل الناس على شرع واحد. وفي هذا اليوم وصل غلام ليارَخْتِكِين يخبره بحصول حرم البساسيري بشَهرزُور عند بدر بن المهلهل، وذكر أن السلطان ظفر بإبراهيم ينَّال ومحمد وأحمد ولدي أرباش أخوي إبراهيم ينَّال وقتلهما، وخَنَقَ إبراهيمَ بوتر قوسه، وقَتَل ألوفاً من التركمان، وهربوا، وجاء السلطان بعد أن كسرَ إبراهيمَ والتركمانَ إلى الري، واجتمع بخاتون.

قال محمد بن الصابىء: لمَّا انهزم إبراهيم عن هَمَذان كاتبَ إخوته محمداً وأحمدَ، واستعان بهما، فسار إليه في نحو ثلاثين ألفاً، ونزل بقزوين وبينها وبين الري عشرون فرسخاً، وخرج السلطان من الريِّ إليه وواقعه، فظهر عليه إبراهيم، فعاد إلى الريِّ، فاستولى إبراهيم، وقوي، فورد على السلطان الأمراءُ قاروت بك صاحب كرمان وياقوتي وألب أرسلان أولاد أخيه داود، وقوي بهما، فخرج إلى إبراهيم، فانهزم إبراهيم من بين يديه، وقُتِلَ من أصحابه مقتلةٌ كبيرةٌ، وأُسِرَ إبراهيمُ فانهزم، وأُسِرَ أحمد[3] ومحمد أخواه، وحُملوا إلى السلطان، فأمر بقتلهم، فسُئِلَ فيهم، فتوقَّف وفي قلبه النار ممَّا تمَّ على الخليفة وهم ينصُّون أن إبراهيم فعل ذلك، ثم أحضرَ إبراهيمَ بين يديه وخنقَه بوتر قوسه، وقتل أخويه محمداً وأحمد، وبعث إلى هزارسب بقَباء

(١) في الأصلين (خ) و(ف): أبي نصر بن أبي عمرو بن بصفان.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، والخبر ذُكر مختصراً في المنتظم ١٦/ ٤٥ .

(٣) جاء في الأصلين (خ) و(ف): إبراهيم، وهو سبق قلم من أحد النُّسَّاخ.

إبراهيم؛ ليتحقَّق الحال، وكان هزارسب مقيماً بالأهواز، وعنده الكُنْدُري عميد الملك، فأخذ منه دنانيرَ وثياباً وخيلاً، وسار نحو السلطان على أصبهان.

وفي ربيع الآخر انحدر البساسيري إلى واسط متيمماً غَزْنة في أمر هزارسب، بعد أن أنفذ أنوشْتِكين أحدَ حُجَّابه إلى قريش يشير عليه بأن يُنفِذَ أرسلان خاتون إلى السلطان، وكان السلطان قد أرسل قريشاً يلتمسها، ويخلط بذاك ذكر الخليفة، وردِّهِ إلى مكانه، ويكون البساسيري وأصحاب الأطراف على عادتهم بالعراق بعد أن ينقشوا السِّكَّة باسم السلطان، وبعث لها البساسيري ثلاثَ مئة دينار تنفقها في سفرها، فردَّتها على الحاجب استقلالاً لها، وقالت: هذه نفقة يوم، وقد وهبتُها لك. وشرع قريش في تجهيزها، وهيَّأ لها عَمَّاريةً، وجلَّلها بالديباج، وبعث لها دنانير وثياباً وخيلاً وبغالاً، ولم يبْقَ إلا مسيرُها، وكان عميد الملك قد كتب إلى السلطان يقول: ما كان سبب ما جرى ببغداد إلا من ابنابجيل وعمر، فإنهما فسخا التدبير، وفلَّا الجموع، فخافا من السلطان، واستوحشا منه، وتحصَّنا بقلعتين.

وفي جمادى الأولى عاد أنوشْتِكين الحاجب من الموصل، وذُكِرَ أنه ورد إلى قريش خادمٌ من جهة السلطان يقال له: زيرك، ومعه ثيابٌ، ومالُ أرسلان خاتون، وكتابٌ إلى قريش يتضمَّن شُكره على ما فعله، من استصحاب خاتون، والإرهاب فيما يتعلَّق بالخليفة، والإشارة إلى إعادته إلى داره وإعادة الخطبة والدعوة له، وأن يكون للبساسيري على باب الخليفة، ويقيم السلطان في بلده إلى حين ما يرى من مسيره إلى العراق، وكتب قريش في الجواب: إنني العبد الخادم، وما جرى كان عن قضاء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقَدَرِه، وفِعْلِ ابنِ المُسلمة ـ ذلك الغالط ـ وقلَّةِ تدبيره، وقد جرى على البلاد ما أخربَها ودرسَها، وليس ها هنا ما نُثابر عليه، وتطمح العينُ إليه، ومتى وقع تسرع في المسير إلى العراق، فلستُ آمَنُ أن يتِمَّ على الخليفة أمرٌ يفوت، وسببٌ يسوء، ولسنا بحيث نقِفُ لكَ ولا نُحارِبُكَ، بل نَبعُدُ عنكَ، وأمَّا هذا الرجل ـ يعني البساسيري ـ فأنا أتوصَّل إلى كلِّ ما يُراد منه، والسلام.

وراسل قريشٌ البساسيريَّ مع أنوشْتِكِين، وقال له: إن السلطان قد التمس كذا وكذا، فإيَّاك والمخالفَةَ، ونحن قد خدمنا سلطاناً بيننا وبينه ستُّ مئة فرسخ، وفعلنا معه

ما لم يظُنَّه، وقد مضى لنا منذ ستة أشهر منذ فتحنا العراق ما كتب إلينا حرفاً، ولا التفت إلينا، وقد [عادت][1] رسلنا بعد سنة منه صِفراً، ولم يُنفِذْ لنا رسالةً فضلاً عن مال ورجال، ومتى تجدَّد أمرٌ فما يشقى به إلا أنا وأنت، وما المطلوب سواي وسواكَ، والصواب المهادنة، وردُّ الخليفة إلى أمره، وتستكتبُ له مَنْ تأمنُه، وتحقنُ الدماء، وتحفظ الأموال، ونعيش باقي العمر في سكون وطمأنينة، والسلام.

وكان البساسيريُّ قد انحدر إلى واسط، فلمَّا كان يوم الاثنين لتسعٍ بَقِين من جمادى الأولى سار من واسط يُريد الأهواز، وابتدأ بالبصرة، فرتب أصحابَه فيها ولم يدخلها، وكان معه دُبيس وصدقة بن منصور وأبو الفتح بن وَرَّام، واجتمع إليه جماعةٌ كثيرةٌ من الدَّيلم والأكراد والتُّرك والعرب، وكتب هزارسب إلى دُبيس يقول: ما أُخالف أبا الحارث في شيء، وإنما بيني وبين السلطان متاخمةٌ في الأعمال، ومجاورةٌ في البلاد، ومتى انحرفتُ عن طاعته لم آمَنْه، وجاءني من قِبَلِه ما لا طاقة لي به، وكذا أمري معكم، لا أقاتلكم، ولا أواجهكم، بل أبعُدُ عنكم، والمصلحة مصالحةُ السلطان، وأن يُجاب إلى ما أمر به، من رَدِّ الخليفة إلى داره، وهو مع ذلك يكاتب السلطان ويستنجده، ويُهوِّن عليه أمرَ البساسيري.

وفي جمادى الأولى سيَّر قريشٌ أرسلان خاتون إلى السلطان، ومضى معها جماعةٌ من العجم الذين سَلِموا من القتل، وكانوا قد أصعدوا مع قريش إلى الموصل، وبعث أيضاً بأولاد عميد العراق وزوجتِه، وهي مظهرةٌ الشكر لقريش، مُبطنةٌ الشكوى منه.

وفي جمادى الآخر ورد رسولُ البساسيري من مصر، وكان قد أنفذه من الرَّحبة قبل فتوح بغداد يطلب الأموال، فأقام سنة وعاد بغير شيء، وذكر أنَّ بعض أصحاب المستنصر خلا به وقال [له] لمَّا وصل الخبر بفتوح بغداد: لم يصِلْ من صاحبك كتابٌ بصورة الحال على الفور، وإنما سمعناه من نُوَّابنا بالشام، وليست العادةُ جاريةً بهذا، وهذا الرجل قد التجأ إلينا فآويناه، ونصرناه وأمددناه وأعطيناه، وكان العسكرُ منه شاكين، والرعيةُ في الأعمال عنه نافرين؛ لما استعمله معهم في طريق العراقيين من الظلم والعسف، واستبدَّ برأيه فيما يفعله، وكنا نكاتبه ولا يفعل إلا ما يريد، ولا يجيب عن شيء، ومضى إلى

---

(١) هذه الزيادة هنا وفي الموضعين الآتيين من (ف).

الموصل بغير أمرنا، وقلنا له: سالِمْ أهل العراق إلى أن نأمرك، فما التفتَ، وسار إلى العراق بغير إذن، ثم فتح دار العباسي التي هي قلعة أموال العباسيين والناسِ، وذخيرةُ أهل الدنيا من سائر الأقطار، وأخذَ أموالَهم، ونهبَ الرعية وصادرهم، وفعل ما لا يحِلُّ ولا يسوغُ ولا يُحمَلُ عليه، واحتجز الأموال لنفسه، وأخذ منها ما عَظُم خطرُه، وأخذ العباسيَّ واعتقلَه، بحيثُ لا يدَ لنا عليه، ولا أمرَ ينفُذُ لنا فيه، وقتلَ أصحابَه وصلبَهم من غير استئمار ولا استئذان، ولا رأى على نفسه أن يُعيد بعض الأموال [التي حُمِلت إليه، ونحن إنَّما نُطلق الأموال] لنفتح بها البلاد، ثم نستعيدَها وأضعافَها، وكلُّ هذا جميعُه داخلٌ في حكم العصيان، خارجٌ عمَّا ألِفْناه من أوليائنا، وقد بَلَغَنا أنَّ حاجبه ابن خِتِكين واصلٌ إلينا، وإذا وصل أنفذنا صحبتَه الجواب، وأنتَ مُخيَّرٌ في المُقام والمسير. قال: فقلتُ: المسيرُ إلى أهلي وولدي أحبُّ إليَّ، وانفصلتُ عنهم.

وورد الخبرُ بأنَّ السلطان عاد من هَمَذان إلى أصفهان؛ إطماعاً للبساسيري، وتسكيناً إليه، وإظهاراً للبُعد عن العراق؛ ليكون ذلك داعيةً إلى خلاص الخليفة، وردِّه إلى وطنه، وحراسة مُهجته.

وفي تاسع عشر جمادى الآخرة وصلت زوجةُ البساسيري بنت الحازم وزهرة جاريته وولداها منه، فأفرج ابنُ البساسيري أبو البركات عن يارَخْتِكِين الحاجب، وخلع عليه، وحمله على عدة دواب، وسار يوم الجمعة لسِتٍّ بَقِين من الشهر، وخرج معه مَنْ بقي ببغداد من العجم، وحكَتْ زوجةُ البساسيري وزهرةُ بما قاسيا من القلعة بعد المصادرة والضرب العظيم من الجوع، فإن والي القلعة كان يُعطيهم كلَّ يوم من الخبز الشعير ما لا يكفيهم، وكانوا يغزلون الصوف ويبيعونه ويتقوَّتون به، وكان مع زوجة البساسيري صبيٌّ من أهل بغداد، وكان يحتطب ويبيع الحطب وينفق عليهم من ثمنه، وعاد البساسيريُّ إلى واسط بعد أن دخل قريباً من الأهواز.

**ذكر السبب:**

لمَّا قرب البساسيري من المأمونية ونزل بها، جاء وليُّ الدولة أبو العلاء بن هزارسب في رسالة إلى البساسيري تتضمَّن: بذل المال والمصالحة عن خُوزستان، وعَود العساكر عنها؛ لئلا يشعثها، فأجاب البساسيريُّ واقترح الخطبة لصاحب مصر،

ونقش السِّكَّة باسمه، فامتنع هزارسب من ذلك، ونزل أبو العلاء على دُبيس، وبعث فأخذ أمواله وأسبابه من الأهواز ولم يعُدْ إليها، وكان صديقَ البساسيري قديماً، وكان هزارسب في ثلاث مئة ألف وخمس مئة فارس وألف راجل، والبساسيريُّ كذلك وأكثر، وكانوا قد وصلوا إلى المأمونية جياعاً عطاشاً قد ضاقت بهم العلوفات، وسبق هزارسب حتى نزل على قنطرة دون الأهواز، ونزل البساسيريُّ في مقابلته وبينهم نهران، أحدهما الذي هم عليه نزول، والآخر يلي عسكر البساسيري، ثم وقعت المراسلة على هدنة مقدارها ستة أشهر، آخرها سلخ ذي الحجة، ولا يتعرَّض أحد إلى بلد أحد، وأن تكون الخطبة للمستنصر بعد هذه المدة أول المُحرَّم، وأشاع هزارسب كراهيته لعسكر السلطان، وكان قصده المغالطة، ووقعت الأيمان عن المصافاة، وكان بين العسكرين نهر مقداره رمية سهم، ولم يُسمَعْ بعسكرين بينهما مقدار هذا، فقاتلوا أسبوعاً، ثم ورد أنوشروان إلى هزارسب من عند السلطان بالنجدة، فعاد البساسيريُّ مسرعاً إلى واسط، وكان قد عبر من رجالة البساسيري خلقٌ كثيرٌ إلى الأهواز بسبب النهب، فقتلهم أهلُها، وأقام البساسيري بواسط يجمع العساكر على نية العود إلى حرب هزارسب، وأصعد الأمراءُ الذي كانوا معه إلى بلادهم؛ دُبيس وأبو الفتح بن وَرَّام وأبو منصور وغيرهم، وكتب البساسيريُّ إلى قريش، وبعث الرسول يشكو من دُبيس والجماعة، ويسأله الانحدار إلى واسط [ليُدبِّر](1) على هزارسب تدبيراً، وشكا إليه تقاعد دُبيس وابن وَرَّام وكونَهما تخلَّيا عنه، وقال: مهما فتحتَ من خُوزستان فهو بيننا نصفان. وبعث إلى حلب يطلب الغلمان البغدادية، وكانوا قد انصرفوا عنه لمَّا كان بالرحبة كراهيةً له، ولِما كان يعاملهم به، وكانوا جمرةً قوية، ولمَّا فتح بغداد قال له قريش: رُدَّهم فما نستغني عنهم. فامتنع، فلمَّا كان في هذا الوقت راسلهم بكاتبه أبي علي بن فضلان، فلم يلتفتوا، وقالوا: قد فتح بغداد، ونهب أموالنا، فلمَّا لم يبقَ إلا الخوف من طُغْرُلْبَك والقتال طلبنا ما لنا عنده حاجة، ووردت كتب ابن خُتِكين رسولِه الذي سار بكتابه بفتوح بغداد يقول بأنَّ ابن المغربي الوزير توقَّف في أمورك كلِّها، وقد كان أبو الفتوح بن المغربي هذا هرب من البساسيري إلى مصر [ووَزَرَ لصاحبها وفي

(١) هذه الزيادة من (ف).

قلبه ما فيه، فظنَّ عليه عند صاحب مصر] وقال له: ما قدَّمناه ـ وذكر ابن خُتِكين ـ في كتابه أنَّ الوزير أحضره وقال: صاحبُك فعل وفعل، وافتاتَ على أمير المؤمنين بكذا وكذا، وذكر بمعنى ما ذكرناه، وقال: قد أخذ الأموالَ العظيمة، وما هان عليه أن يُقدِّم للخزانة شيئاً، ثمَّ أخْذُه العباسيَّ واعتقالُه بالحديثة ولا سيَّره إلى ثابتة، واتفاقه مع قريش على مقاسمة البلاد كأنها كانت مِلْكه، وصَلبُه لابن المُسلمة من غير استئمارٍ وإذنٍ منا، ثم يكاتبنا بعد الفراغ من الأمور، ولَعمري إنَّ هذه لَعادةُ تلك البلاد في العصيان، واطِّراح أمر السلطان، وكان الوزير قد قال لصاحب مصر: إن الذي جرى ببغداد من أمر العباسي غير مأمون العاقبة، وربما يتأتَّى من عسكر خراسان على الشام ما لا يُمكِنُ استدراكُه، ويجب أن تدع العراق وما فيه، ولم يُجاوب البساسيري عن كتابه بحرف، وكلُّ غيظ المستنصر منه، حيث لم يبعث بالخليفة إليه، وقد كان عَزْمُه أن يبعث به إليه، لولا ذمام قريش إليه واتفاقهما، ثم أظهر السلطان التجهز إلى العراق، فكتب بدر بن مهلهل بن أبي الشوك الكردي إلى البساسيري يقول: السلطان قد قرُبَ، وقد كان التمس منك أن تُعيد الخليفة إلى مكانه، وتكون على بابه، ولا تطأ العراق، فلم تفعل، وأنا أدخل في القضية، وأُعطيك ولدي رهينةً، فلم يُجِبْه عن كتابه.

وفي شوال لاح في الليل في السماء ضوءٌ عظيمٌ كالبرق يلمع في موضعين؛ أحدهما أبيض، والآخر أحمر، وأقام إلى ثلث الليل، وكبَّر الناس وهلَّلوا.

وفي شوال عاد صاحب قريش إليه، وكان قد بعثه مع أرسلان خاتون، وورد معه أبو بكر بن أحمد بن أيوب المعروف بابن فُوْرَك وزَيْرَك الخادم صاحب السلطان بكتاب إلى قريش، عنوانه: للأمير الأجَلِّ علمِ الدين عزِّ الدولة أبي المعالي قريش بن بدران، مولى أمير المؤمنين، من شاهنشاه المُعظَّم ملكِ المشرق والمغرب، ركنِ الدين، غياثِ المسلمين، سلطانِ بلاد الله، مُغيثِ عباد الله، طُغْرُلْبَك أبي طالب، محمد بن ميكائيل بن سلجوق، يمين خليفة الله أمير المؤمنين، وعلى رأسه بخطِّ السلطان: حسبي الله، ومضمونه: كتابنا: أطال الله بقاء الأمير علم الدين، أدام الله عِزَّه وتأييده وتمكينه وتمهيده، إنَّ نِعم الله علينا متظاهرة، وآلاؤه متوالية، ورَدَ كتابُه ووقفنا عليه، واعتدَدْنا

بصنع الله له، وسابغ إحسانه إليه، فأمَّا ما بلغه الرسل من حُسنِ اعتقاده في خدمتنا، وسلامةِ صدره في طاعتنا فقد علمناه، ولمَّا ورَدْنا العراقَ كان في عزمنا تسليمُ الأمر إلى علم الدين في تلك الولايات، استقلَّ بالخدمة الشريفة، والمواقف المقدسة، وحدثَتْ حوادثُ، وعرضت عوارض، ولم يحدُثْ منها ـ بحمدِ الله ـ في حقِّه ما يقدح في الاعتقاد السليم، وإزالةِ الحقِّ عن السنن المستقيم، وقد ظهرت نيَّتُه الجميلة، وهِمَّتُه العالية الجليلة في خدمة سيدنا ومولانا الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين، أطالَ اللهُ بقاءه، وأعزَّ أنصاره وأولياءه، حتى لم يظفرِ الأعداءُ منه بما حاولوه، ولم يدركوا فيه ما أمَّلوه، وهذه مِنَّةٌ عظيمة على الإسلام وأهله، وأثرٌ جميلٌ في الدين، لم يوفَّق أحدٌ لمثله، ثم الذي وُفِّقَ له من المحافظة على سَنَن العرب ـ من رعاية حُسن العهد ـ ما عظُمَتْ علينا وعلى المسلمين مِنَّتُه، وزادَتْ عندنا مكرُمَتُه، فلو أعطيناه جميعَ ما حويناه ولا استقللناه، واحتقرناه واستصغرناه، وقد أقبلنا بخيول المشرق إلى خدمة سيدنا ومولانا الإمام، ولا فُسحةَ لنا في التأخير عنه ساعةً من الزمان، بعد أن أهلَكْنا أعداءَنا، وذلَّلنا حُسَّادنا، والمقصودُ أحدُ أمرين؛ إمَّا أن يُقبِلَ الأميرُ سيدنا ومولانا إلى مقرِّ خلافته وسرير عظمته، وينتدب الأمير بين يديه متولياً حكمه، ممتثلاً رسمه، فذلك هو المراد، وهو خليفتُنا في تلك الخدمة المفروضة، وتولية العراق بأسرها، وتصفية مشاريع بَرِّها وبحرِها، وإمَّا أن يحفظ علينا شخصَ مولانا العالي بتحويله من القلعة إلى حين لحاقنا بخدمته، ويكون الأميرُ مُخيَّراً بين أن يكتفي بنا، وبين أن يُقيم حيث شاء، فنولِّيه العراق، ونستخدمه في الباب الشريف، ونصرف أعيننا إلى الممالك الشرقية، وعشائره كلُّهم إخوانُنا، وهم في أماننا، فلا يدخُلُ قلوبَهم رهبةٌ منا، وكذا جميع العساكر المنسوبين إلى خدمته، ولكلِّ مُذنبٍ عندنا في العراق عفوُنا وأمانُنا، إلا الفاجرَ الكافرَ البساسيريَّ عدوَّ اللهِ ورسولِه، فإنه لا عهدَ له ولا أمانَ عندنا، فلقد ارتكب في دين الله عظيماً، وخطباً جسيماً، وهو إن شاء الله مأخوذٌ حيث وُجِد، ودلَّتْ أفعالُه على سوء عقيدته، وخُبْثِ طويَّته، فإن سربَ في الأرض لحِقَه المكتوبُ على جبهته، وإن وقف فالقضاءُ سابقٌ إلى مُهجَتِه، وقد حمَّلنا الأستاذَ العالم أبا بكر أحمد بن محمد بن أيوب ـ أدامَ الله عِزَّه ـ والشيخَ معتمِدَنا أبا الوفاء

زَيْرَك ما يؤدِّيانه من الرسالات، ويُبلِّغانه من التحملات، وهو يصغي إليهما، ويعتمد عليهما، ويُسرِّحهما إلى القلعة ليخدما مجلس سيدنا ومولانا الإمام عنا، ويأتيا ببشارة عالي شخصه المحفوف بالبركات، والبلاد كلُّها والقلاع للأمير مبذولة، في جنب مساعيه والثقة به، وكان مع رسولَي الخليفة أربعون ثوباً أنواعاً، وعشرُ دُسوت ثياباً مخيطةً، وخمسة آلاف دينار، وخمس دسوت مخيطةً من خاتون زوجة الخليفة، وحكى الرسولُ كثرةَ العساكر مع السلطان، فخاف قريش وانزعج، وبعث إلى الجِفار[1] من أصلح المياه، وعزم على دخول البرية، وبعث بالكتاب إلى البساسيري والرسالة، وحذَّر من الرسول ليعود الجواب بسرعة، وكان قريش يكاتب السلطان سرًّا، ويطيعه في البلاد حسداً للبساسيري وتغيُّراً عليه، فإذا صحَّ من السلطان عزمٌ أجفَلَ[2] من قرية ولم يجتمع به، وبعث البساسيريُّ إلى بغداد، فأخذ دوابَّه ومالَه وسلاحَه إلى واسط، وتقدَّم بأن يسلخ جلد ثور ويكسى به رِمَّة ابن مُسلمة، ويجعل قرنيه على رأسه، وفوقهما طرطور أحمر، وكان السلطان قد اقترح فيهما أن يحطَّ رِمَّة ابن مُسلمة، وورد رسول قريش من عند البساسيري، وقال: قد أجاب بحيث لا يذكر السلطان ببغداد في الخطبة، وقَويتِ الأراجيفُ بقرب السلطان من بغداد، وأُقيمت له الإقامات بِحُلوان، وكتب أبو البركات بن البساسيري إلى أبيه يسأله ما يصنع، فكتب إليه يأمره بالمقام والثبات، ووصلت مقدمات السلطان إلى قصر شيرين، وانحدر حرم البساسيري وأولاده وأصحابه وجميع من يتعلق به إلى واسط، وذلك يوم الثلاثاء خامس ذي القعدة، وتبعهم أهل الكَرْخ، ووصلوا إلى صرصر، وهلك منهم في[3] عبورهم خلقٌ كثير، ولحقهم العيَّارون ونهبوهم، ومَنْ بقي منهم نهبهم بنو شيبان، وقتلوا أكثرهم، وسَبَوا نساءهم وغرقوهم.

واتَّفق دخولُ البساسيري بغداد يوم الأربعاء سادس ذي القعدة، وخروجُ أصحابه منها سادس ذي القعدة، فكان يملكها سنةً كاملة.

---

(١) الجِفار؛ جمع جَفْرة: وهي البئر الواسعة التي لم تُطو. اللسان (جفر).

(٢) أجفل: مضى وأسرع. اللسان (جفل).

(٣) في (ف): على.

وثار الهاشميون وأهل باب البصرة إلى الكَرْخ فنهبوه، وطرحوا النار في أسواقه ودُوره ودُروبه، فاحترق منه ألفٌ ومئتا دار، وكلُّ دار تساوي ثلاث آلاف دينار، وفيها دور تساوي كلُّ دار ثلاثين ألف دينار.

**ذكر أحوال الخليفة:**

كان قد استخلف مهارش العقيلي وتوثَّق منه في حراسة نفسه، وأن لا يُسلِمَه إلى عدوِّه، وكان مهارش قد تغيَّر على البساسيري لبذول بُذِلَتْ له، ولم يقع الوفاءُ بشيء منها، وبعث قريش أبا الحسن بن المُفرِّج إلى مهارش يقول: قد كنَّا أودعنا الخليفة عندك ثقةً بأمانتك، وسكوناً إلى ديانتك، ولِنَكُفَّ به عاديةَ الغزو عن بلادنا ونفوسنا وعشائرنا، وقد عادوا الآن وأطلُّوا علينا، وربما قصدوك وحاصروك وأخذوه منك، فخُذْه وارحَلْ به وبأهلك وولدك إليَّ، فإنهم إذا علموا حصولَه في أيدينا لم يقدَموا علينا خوفاً على نفسه، فإذا طلبوه منا اشترطنا عليهم أن لا يتعرَّضوا لبلادنا ولا لعشائرنا، ونقترح عليهم ما شئنا من المال والبلاد، وما أرومُ تسليمه إليَّ، بل يكون على حاله في يدك، بحيث لا يُؤخَذُ قهراً من أيدينا. فقال مهارش لرسوله: قُلْ له: البساسيريُّ غدر بي، ولم يَفِ بما ضمن، ما بقي لكم في رقبتي أيمان، وقد قلتُ: أرسِلْ خُذْ صاحبَكم الذي عندي، فلم يفعل، وعرف الخليفةُ خلاصَ رقبتي من اليمين، فاستحلفني لنفسه، فعاد ابن المُفرِّج بغير شيء. وقال مهارش للخليفة: الرأيُ أن نخرج ونقصد بلد ابن مهلهل، ونكون في موضع نأمن به على نفوسنا، فلا نأمن أن يأتي البساسيري فيحاصرنا ولا نقدر أن ندفعه عنا. فقال: افعَلْ ما تراه. فخرجا من الحديثة يوم الاثنين حادي عشر ذي القعدة، وسارا حتى قطعا دجلة، وحصلا بقلعة تل عُكْبَرا.

قال ابن فورك: عُدْتُ من عند قريش إلى حُلَّةٍ لبدر بن مهلهل وأنا على وجَلٍ من أمر الخليفة لِما سمعتُه من قريش في معناه، وحذراً أن يقصد الحديثةَ فيأخذه معه، ويصير بحكمه، فبينا أنا مفكر في ذلك وعودي إلى السلطان بميله، إذ جاءتني رسالة بدر بن مهلهل، فحضروا عنده، وإذا بسواديٍّ قد حضر[1] إليه، فقال: أعِدْ ما حكيتَه. فقال:

(١) جاء فوقها في (خ): ورد، وأشير على أنها نسخة.

رأيتُ البارحةَ عسكراً يقصد تل عُكْبَرا، فسألتُ عنه، فقيل: هذا الخليفة مع مهارش قد جاء من الحديثة. قال: فاستبعدتُه، فلم أبرَحْ من مكاني حتى ورد رسولٌ من قلعة تلِّ عُكْبَرا يقول: قد نزلوا تلَّ عُكْبَرا، فحققت الحال، وطِرْتُ فرحاً، وقمنا إلى القلعة، وضرب له بدرٌ خيماً ونزل إليها، وسلَّمتُ إليه ما كان معي من المال والثياب، وجاء السلطان فدخل بغداد، وعبر إلى الجانب الغربي، ونزل بالنَّجمي، وكتبتُ إليه وعرَّفتُه صورةَ الحال، وطلبتُ للخليفة خيماً وسرادقاً وفرشاً، ولمَّا وقف على كتابي طار فرحاً، وجاءه ما لم يكن في حسابه ولم يخطُرْ بباله، وأنفذ أنوشروان في ثلاث مئة غلام ومن استعقله من الحُجَّاب، ومعهم البَخاتي، عليها السرادق الكثيرة، وعدة خيم وخركاوات وآلات، وفرشاً كثيرة، وبغالاً عليها الأواني والثياب، وغير ذلك، وبغلاً عليه مهدٌ مُسَجَّفٌ(١) بالديباج الأسود، وثلاثة أفراس بمراكب الذهب، وبعث بالجميع مع عميد الملك، وعرفتُ خبرهم، فركبتُ واستقبلتُهم، فسألني عميد الملك عمَّا جرى من ذلك، فشرحتُه له، فقال: تقدَّمْ واضرِب السُّرادقَ والخِيمَ، وانقُل أمير المؤمنين إليها لتلقاه فيها، وإذا حضرنا فلتؤخِّرِ الإذن لنا ساعةً كبيرةً، فسبقتُ وطالعتُ الخليفةَ بذلك، فأجاب إليه، وضُربَتِ السُّرادِقُ والخِيَمُ، وانتقل إليها، وجاء عميد الملك والأمير أنوشروان، فنزلوا عليَّ في خيمة لهم ساعةً، ثم أذن لهم فدخلوا، وقبَّلوا الأرض، وذكر عميد الملك رسالةً عن السلطان وسرورِه بخلاصِ الخليفة، وشكر مهارشاً على فعله، وقال: نُسَمِّ اللهَ ونسير. فقال: قد تعِبْنا ونستريح يومين. ثم ترجَّل، فكتب عميد الملك إلى السلطان كتاباً يخبره بصورة الحال، وأحبَّ أن يأخذ خطَّ الخليفة عليه تصديقاً لما تضمَّنه، ولم يكن عند الخليفة دَواةٌ، فأحضر عميد الملك من خيمته دواةً على مرقع فيها ألف وسبع مئة مثقال من الذهب، فتركها بين يديه، وأضاف إليها سيفاً مُحلًّى، وقال: هذه خدمة منصور بن محمد ـ يعني نفسه ـ خدم بها، وقد جمع بين السيف والقلم، فشكره الخليفة، وكتب من الدَّواة، وسِرْنا بعد يومين إلى النَّهروان، فوصلنا إليه يوم الأحد رابع عشرين ذي الحجة، وجاء السلطان للقاء الخليفة، فلمَّا وقعت عينُه على السُّرادق ترجَّل ومشى إلى أن وصل، فلمَّا دخل قبَّل

(١) مُسجَّف: مستور. اللسان (سجف).

الأرضَ سبع مرات، فقال الخليفة: يا ركن الدين، ماذا لقينا بعدَك؟ وأخذ مخدَّةً من دَسْتِه فطرحها بين يديه، وقال: اجلِسْ عليها. فأخذ المِخَدَّة وقبَّلها وجلس عليها، وأخرج من بند قَبائه الحبل الياقوت الأحمر الذي كان لبني بويه، فقبَّله وطرحَه بين يديه، ثم أخرج اثنتي عشرة لؤلؤة كباراً مثمنةً، وقال: هذه تقدمة أرسلان خاتون ـ يعني زوجة الخليفة ـ أنفذَتْها معي، وسألت أن يُسبِّح بها أمير المؤمنين، وكان السلطان يكلِّم عميد الملك وهو يفسره للخليفة، واعتذر من تأخُّره بعصيان أخيه إبراهيم ينَّال، وقال: قد عصى غيرَ مرة، وعفوتُ عنه، فلمَّا دخل الضررُ على أمير المؤمنين بسببه كان جوابُه: إنني خنقتُه بوتر قوسي، وقتلتُ ولدَي أخيه الذين استنجد بهما، ثم شفع ذلك وفاة الأخ الأكبر داود، فاحتجتُ إلى المقام حتى رتَّبتُ أولادَه مكانه، وكنتُ على نية المسير إلى الخدمة لأُخلِّص المُهجة الشريفة، فوصلني الخبر بما كان ـ بفضل الله تعالى ـ بخلاصها، وخدمةِ هذا الرجل ـ يعني مهارشاً ـ في معناها، بما أبان من صحيحِ ديانته، وصادقِ عقيدته، وأنا إن شاء الله أمضي وراء هذا الكلب ـ يعني البساسيري ـ وأقتنصه، وأيمِّم إلى الشام، وأفعل بصاحب مصر ما يكونُ جزاءً لفعل البساسيري. فدعا له الخليفة، وشكره وقلَّده بسيفٍ كان إلى جنبه، وقال: لم يسلَم معي وقتَ خروجي من الدار غيرُه، وقد تبرَّكتُ به، فقبَّل الأرض وقام، فاستأذن في دخول العسكر إلى الخدمة ليشاهدوا الخليفة، فأذِنَ، فكشف السُّرادق والخليفة في خَرْكاة، فدخلوا وشاهدوه، وقبَّلوا الأرضَ وانصرفوا، وقال الخليفة: اضربوا خيمتي عند خيم السلطان، فإني أريد أن أكون معه حتى يقضي الله في هذا اللعين ـ يعني البساسيري ـ فقال السلطان: هذا ممَّا لا يجوز فِعْلُه، ونحن الذين نصلح للحرب والسفر والتهجم والخطر دون أمير المؤمنين، فإذا خرج بنفسه فأيُّ حكم لنا؟ وأيُّ خدمةٍ تقع منا؟ والمصلحة دخول أمير المؤمنين إلى داره، فأجاب على كُرهٍ، وكان يقول: أخاف من غائلة اللعين. وجرَتْ لمهارش خطوبٌ في اقتراحاته أدَّتْ إلى أن أطلق له السلطان عشرة آلاف دينار أُحيلَ منها بسبعة آلاف على مال الأهواز، وسَلَّمت إليه هَيْت بالثلاثة آلاف الباقية، ولم يَكُ راضياً بما فَعَلَ معه، ولا طيِّبَ النفس بما جعل له[1].

(١) ينظر المنتظم ١٦/٢٤٦ـ٢٥٢.

ولمَّا كان لخمسٍ بَقِينَ من ذي الحجة ركب القائم وعساكر السلطان بين يديه والجنائب والملوك الأسفهسلارية، والمهد بين يديه، والأعلام على رأسه، وعليه السَّواد وأُبَّهة الخلافة، وبيده سيف مسلول، والعجم مُحدِقون به، ولم يبقَ مَنْ يستقبله من أهل بغداد سوى القاضي وثلاثةُ أنفُسٍ من الشهود؛ لهرب الناس من مصادرات البساسيري والضرب والعقوبات.

وسبقَ السلطانَ وجلس على دَكَّة الباب النُّوبي مكان الحاجب، وكان قد سأل الخليفةَ أن يمشي بين يديه من النهروان فامتنع، فلمَّا ورد الخليفةُ باب النُّوبي قام السلطان وقبَّل الأرض، وأخذ بلجام دابَّته، ودخل يمشي إلى باب حجرة الخاص، فدخل الخليفة بالبغلة إلى أماكن قد فُرِشَتْ بفُرشٍ عظيمة من عند السلطان، واعتذر من قِلَّتها، ثم قبَّل الأرض واستأذنه في المسير وراء البساسيري، فأَذِنَ له، فعَبرَ من وقته إلى النَّجمي، وتجهَّز للمسير خلفَه، وقال أبو علي الحسن بن جعفر الضرير البندنيجي ـ ويُعرف بابن الهَمَذاني ـ من أبيات: [من الوافر]

ولـمَّـا أن طـغَـتْ عُـصَـبٌ وطـاشَـتْ حُـلـومٌ أورثَـتْ لـهـمُ ضِـرامـا
وقـادهـمُ الـقـضـاءُ إلـى عُـتُـلٍّ زنـيـمٍ قـاد لـلـفـتـن الـسُّـوامـا
أتـاحَ الـلـهُ ركـنَ الـديـن لـطـفـاً وتـأيـيـداً فـأخـزى مَـنْ ألامـا
وأردى الـعـبـدَ لا جـادَتْ يـداهُ سـوى الـنِّـيـرانِ تـضـطـرمُ اضـطـرامـا
وأتـعـسَ جَـدَّهُ فـأدالَ مـنـهُ وأقـعـصَـهُ وقـد جَـدَّ انـهـزامـا
أقـام ثـقـافـه الإسـلام لـمَّـا تـأوَّدَ إذ بـأمـرِ الـلـه قـامـا
أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنِ رضًـا وعـفـواً لـعـارضِ نَـبْـوةٍ طـرقَـتْ لِـمـامـا
فـإنَّ الـلـهَ أبـلاكَ امـتـحـانـاً كـمـا أبـلـى الـنـبـيـيـنَ الـكِـرامـا
لـقـد قَـرَّتْ بـأوبـتـهِ عـيـونٌ [تـجـافَـتْ](١) مـنـذ زايـل أن تـنـامـا
وأسـفـرتِ الـخـلافـةُ بـعـد يـأسٍ وحـالَ قـطـوبُ دولـتِـهـا ابـتـسـامـا

(١) ما بين حاصرتين سقط من الأصلين (خ) و(ف)، وأثبت من خريدة القصر ١/ ١٧٦ .

## ذكر مقام الخليفة بالحديثة:

أقام عند مهارش البدري هذه المدة يخدمه بنفسه، وقال الخليفة: لمَّا كنت بحديثة عانة قمتُ في بعض الليالي إلى الصلاة، فوجدتُ في قلبي حلاوة المناجاة، فدعوتُ الله تعالى بما سنح لي، ثم قلتُ: اللهمَّ أعِدْني إلى وطني، واجمَعْ بيني وبين أهلي وولدي، ويسِّر اجتماعنا، وأعِدْ روض الأنس زاهراً، ورَبْعَ القرب عامراً، فقد قلَّ العزاء، ونزح الجفاء، فسمعتُ قائلاً يقول على شاطىء الفرات بأعلى صوته: نعم نعم. فقلتُ: هذا رجل يخاطب آخر، ثم أخذتُ في السؤال والابتهال، فسمعتُ ذلك الصائح بعينه يقول: إلى الحول. فعلمتُ أنه ناطقٌ أنطقه الله تعالى بما جرى عليه الأمر.

وكتب القائم في السجن دعاءً وسلَّمه إلى بدويٍّ، وقال: اذهب إلى الكعبة وعلِّقه عليها، وكان في الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، إلى الله العظيم، من عبده المسكين، اللهمَّ إنك العالم بالسرائر، المحيط بمكنونات الضمائر، اللهمَّ إنك غنيٌّ بعلمك واطِّلاعك على أمور خلقك، عن إعلامي بما أنا فيه عبدٌ من عبادك، قد كفر نعمتك وما شكرها، وألقى العواقب وما ذكرها، أطغاه حِلْمُك، واغترَّ بأناتك، حتى تعدَّى علينا، وأساء إلينا عتواً وعدواناً، اللهمَّ قَلَّ الناصر، وأُعِزَّ الظالم، وأنت المُطَّلع العالِم، والمنصف الحاكم، بك نُعَزُّ عليه، وإليك نهرب من بين يديه، فقد تعزَّز علينا بالمخلوقين، ونحن نعتزُّ بك يا رب العالمين، اللهمَّ إنَّا حاكمناه إليك، وتوكلنا في إنصافنا منه عليك، وقد رفعتُ ظُلامتي إلى حرمك، ووَثِقتُ في كشفها بكرمك، فاحكُمْ بيني وبينه وأنت أحكم الحاكمين، اللهمَّ أظهِرْ قدرتَك فيه، وأرِنا ما نرتجيه، فقد أخذته العِزَّة بالإثم، اللهمَّ فاسلُبْه عِزَّه، ومَلِّكْنا ناصيتَه، يا أرحم الراحمين، وصلَّى الله على سيدنا محمد وسلَّم وكرَّم. فحملها البدويُّ وعلَّقها على الكعبة، فحسب ذلك اليوم، فوجد البساسيريَّ قُتِلَ وجيء برأسه بعد سبعة أيام من التاريخ، ومن شعر القائم قاله في الحديثة: [من البسيط]

خابَتْ ظنوني ممَّنْ كنتُ آمُلهُ ... ولم يَجُلْ [ذِكْرُ][1] من واليت في خَلَدي
تعلَّموا من صروف الدهر كُلِّهمُ ... فما أرى أحداً يحنو على أحدِ

(١) ما بين حاصرتين سقط من الأصلين (خ) و(ف)، وأثبت من البداية والنهاية ١٢/ ٧٨.

وقال أيضاً: [من الرجز]

مـالـي مـن الأيـام إلَّا مـوعـدٌ ... فـمـتـى أرى ظـفَـراً بـذاك الـمـوعـدِ
يـومـي يـمـرُّ وكـلَّـمـا قـضَّـيـتُـهُ ... عـلَّـلـتُ نـفـسـي بـالـحـديـثِ إلى غـدِ
أحـيـا بـنـفـسٍ تـسـتـريـحُ إلى الـمـنـى ... وعـلـى مـطـامـعِـهـا تـروح وتـغـتـدي

وأقام القائم مدةَ مقامه يتوقَّع البساسيريَّ وحصارَه القلعة ساعةً بعد ساعة، ويحسب أنه يبعث به إلى مصر، فكان ذلك أشدَّ عليه من الحبس، ويتمنى الموتَ على عدد الأنفاس، إلى أن أتاه الفرج.

**ذكر مسير السلطان خلف البساسيري ومقتله:**

لمَّا عبر الخليفةُ دارَه عبر السلطانُ دجلة، ونزل بالنَّجمي قاصداً للبساسيري، فجاءه سراً من باب منيع مُقدَّمه من خفاجة، وقال له: أيها السلطان، الرأيُ أن تُنفِذَ معي ألفي غلام من العسكر لأمضي على طريق الكوفة، وأُشغِلَ البساسيريَّ عن الإصعاد إلى الشام، وتنحدر أنت وراءه فتأخذه من غير فوتٍ، فلم يُعجبِ السلطانَ ذاك، إلا أنه قد خلع عليه وأعطاه سبع مئة دينار، فلمَّا انتصف الليل انتبه السلطان واستدعى خُمارتِكين الطغرائي، وقال له: رأيتُ الساعةَ في منامي كأني قد ظفرت بالبساسيريِّ وقتلتُه، فالواجب أن تُسيِّر إليه عسكراً من طريق الكوفة ـ كما قال ـ سرايا، فخُذْ معكَ ألفَي غلام وسِرْ. فقال: سمعاً وطاعةً. واشتغل بتجريد الغلمان، فدخل أنوشروان على السلطان، واستأذنه في المسير إليه مع الغلمان، وانضاف إليهما يارختِكين، وسارتِكين الحاجب، وجماعة من العرب محمد بن منصور العقيلي، وساروا إلى طريق الكوفة، وسار السلطان بنفسه إلى واسط يوم الجمعة تاسع عشرين ذي القعدة منحدراً على دجلة، ولمَّا فارق بغدادَ شرع أصحابُه في خراب البلد، فأحرقوا الأسواق والدروب، وأخذوا الناس فعاقبوهم، واستخرجوا الدفائن، ودام النهب والحريق والقتل حتى خربت بغداد ودُثِرَتْ من الجانبين، ولم يبقَ غيرُ حريم دار الخلافة، وما فيه إلا آحادُ الناس، ومات بالجوع والبرد كثيرٌ من الناس، وأمَّا البساسيريُّ فإنه أقام بواسط مستهيناً بالسلطان، متشاغلاً بجمع الغلَّات والتمور يصعد بها إلى بغداد، فبلغه دخول الخليفة والسلطان إلى بغداد، فعزم على الهرب، وتحيَّر في أمر الغلَّات والتمر ماذا يفعل فيها،

فوقعت نار في زورق كبير فاحترق فتطيَّر، وكان فارسطغان الحاجب لمَّا عصى على جلال الدولة سنة ثمان وعشرين وأربع مئة ونزل بدير العاقول جمع الزواريق، فاحترق زورق كذا، فقُتِلَ بعد سبعة أيام، وكذا البساسيري، فاحتاج أن ينزل على دُبيس ويستجير به، وقد كان شاكًّا فيه؛ لما يعرفه من انحرافه عنه، وما فعل معه لمَّا فتح بغداد، وإنما ألجأَتْه الضرورةُ إليه، وكان دُبيس خائفاً من السلطان ولم يحضر إليه، فنزل البساسيري عليه، وطرح نفسه بين يديه، واستجار به، واجتمعت العرب عند دُبيس وهو بين الحِلَّة وواسط على الفرات، وحدر دُبيس مالَه ورجالَه إلى البَطيحة، وصاحبها أبو نصر بن الهيثم، وانحدر معهم جماعةٌ من أهل بغداد، منهم أبو عبد الله المردوسي وغيره، ولمَّا وصلت السرية التي بعثها السلطان إلى حِلل دُبيس نزلوا قريباً منهم، فأرسل البساسيريُّ إليه، وقال: المصلحة تواقعهم الليلة، فإنهم كالُّون، وخيلُهم قد تعبت. فامتنع عليه، وقال: نُباكرهم غداً، وأصبحوا، فراسل أنوشروان بن مَزْيَد، والتمس به الاجتماع، فمضى إليه، واجتمعا، فقال له: عميد الملك يُسلِّم عليك ويقول: قد مكَّنْتُ في نفس السلطان منكَ ما جعلْتُ لك منه المحلَّ اللطيف، والموقعَ المنيف، وشرحْتُ له ما أنت عليه من طاعته، ويجب أن تُسلِّم هذا الرجل، وتَسْلَم أنت ومَنْ في صحبتك، فما المطلوب سواه لما اقترفه من عظيم ذنبه، وارتكبه من كبير جُرْمه، وإن امتنعتَ واحتجبتَ بالعربية وذمامها وحرمة نزوله عليك والتزامها فانصرِفْ عنه ودَعْنا وإيَّاه. فقال: ما أنا إلا خادم السلطان، سامعٌ مطيع لأوامره ومراسيمه، إلَّا أنَّ البدرية حلمها وذمامها، وقد نزل هذا الرجل عليَّ نزولاً ما آثرتُه ولا اخترتُه، بل كرهتُه وأبيته، وقد عرفتَ ما فعلتُ معك ومع عميد الملك ببغداد لمَّا التجأتما إليَّ ونزلتُما عليَّ، وكيف خدمتُكما وسَيَّرتُكما، والصواب أن تُسرع في صلاح حال البساسيري مع السلطان وتصطنعه وتستخدمه، فما يُستغنى عن مثله وقد فات ما ذبح، وعفا الله عما سلف. فقال له أنوشروان: هذا هو الرأيُ، ونحن نبعد [عنكم من حِلَّة، وتبعدون عنا مثلها؛ لئلا يتطرَّق البعض إلى البعض][1] بوقوع العين في العين، والسلطان قد وصل إلى النعمانية، وأنا أراسله في هذا وما نخالفك، وما فيهما إلا من

---

(١) ما بين حاصرتين من (ف).

قصد خديعة صاحبه، أمَّا دُبَيس فإنه قصد مدافعة السلطان لمَّا تحقَّق وصولُه، حتى يبعد عنه السرية، فإنه يصعد في البرية إلى حيث يأمن على نفسه وحِلَّته وعشيرته، ويدبِّر أمر البساسيري في مُضيِّه عنه، وأما أنوشروان فإنه قصد أن يبعد عن القوم، ويفسح لهم في البرية، فإذا رحلوا تبعهم وأكبَّ عليهم؛ لأنهم حينئذ يكونون قد اشتغلوا برحيلهم وأهلهم عن الحرب، فكان ما قصد صحيحاً، وفعله الله تعالى، وعاد دُبيس إلى البساسيري وأخبره، فقال: الأمر إليك، قد أشرتُ بما أشرتُ وما قُبِلَ مني، افعَلْ ما تراه. وأصبح دُبيس يوم الثلاثاء حادي عشر ذي الحجة هو والبساسيري، فرحلا ورحل أنوشروان بمقابلتهم قُذًّا[1] كمن يراصدهم، فلمَّا أخذوا في الرحيل أكبُّوا عليهم، فثبت البساسيري، وتبيَّن لدُبيس غلطُه، فسارع إلى أوائل الظعن ليردَّه فلم يقبلوا منه ولا التفتوا إليه، وصار الواحدُ يُردف ولدَه خلفه وامرأتَه، وتشاغلوا بنفوسهم، وألقى الله في قلوبهم الرعب، فانهزم دُبيس بن مَزْيَد، ووقف البساسيري فقاتل، وكثروا عليه وأسروا أبا الفتح بن وَرَّام أميرَ الأكراد بالحِلَّة، فأفرج عنه أنوشروان واصطنعه، وثقُلَ ذلك على السلطان لمَّا بلغه، وأسر منصوراً وبدرانَ وحماداً أولادَ مَزْيَد، وانهزم البساسيري بعد أن تورَّط فيهم على فرس بتجافيف، فلم يتَّجِه، وضربه بنُشَّابة، واجتهد في قطع التجافيف فلم ينقطع، وأدركه بعض الغلمان فضربه في وجهه بالسيف ولم يعرِفْه، ورآه بعض العرب المجروحين وأسره كُمُشْتِكين، فنازعه عليه أردم الخادم، فنزل إليه، وحزَّ رأسه، وجاء به إلى السلطان.

وقال محمد بن هلال الصابىء: اعتبرتُ دخولَ أصحاب البساسيري بغداد، فكان اليوم السادس من ذي القعدة سنة خمسين، وخرج أهلُه وأولادُه منها في مثل ذلك من السنة الآتية، وانتزع الخليفةُ من داره يوم الثلاثاء ثامن عشر كانون الثاني في سنة خمسين، وقُتِلَ البساسيريُّ يوم الثلاثاء الثامن عشر منه في السنة الآتية، وهذا من الاتفاقات الغريبة، ودخل الأتراك في الظعن جميعه فساقوه، وكان فيه أموالُ بغداد جميعُها مع الأكابر، وأموالُ العرب بأسرها مع نسائها وأولادها، وكان في السبي نساءُ البساسيري وأولادُه وبناتُه وزهرة وزوجتُه وأختان لابن مَزْيَد وابنتان له، وارتكب من

(١) من قوله: حَذو القُذَّة بالقُذَّة، وهو مثل يضرب للشيئين يستويان ولا يتفاوتان. المعجم الوسيط (قذذ).

النساء المحظور، ونجا من نجا على فرسه دون ماله وحرمه، وبقيت الثياب والأموال مطروحةً في البرية لكثرتها، وعجز الغلمان عن حملها، وهلك مِن الناس العددُ الكثيرُ، والجمُّ الغفير.

وكان الفتكُ من العرب، فإنهم أفسدوا، والتُّرك لم يفسدوا، وإنما أخذوا الأموال، وأحضر السلطانُ جماعةً، فعرفوا رأس البساسيري، فوجدوا في جيبه خمسة دنانير، فدفعها السلطان إلى من قوَّر رأسَه، وأخرج مخَّه، ثم بعث به إلى بغداد، فوصل يوم السبت منتصف ذي الحجة، فتُرِك على قفاه، وطِيفَ به، وضُربت بين يديه الدبادب والبوقات، وعُلِّقَ مدةً، ثم حُمِلَ إلى خزانة الرؤوس، فيقال: إنه باقٍ إلى هلُمَّ جرًّا.

وهرب ابن مَزْيَد إلى البَطيحة، ومعه أبو البركات بن البساسيري وأخواه الصغيران ـ وقيل: زهرة والدتهما وأخته ـ ووصل السلطان إلى واسط، فرأى أصحابه قد نهبوها، فعزَّ عليه، ولام أريسغى، وكان قد تقدَّم إليها، وعبر السلطان إلى الجانب الشرقي قريبٍ من البطائح، وجاءه هزارسب، وتوسَّط خالُ ابن مَزْيَد معه، وحضر باب السلطان، وداس بساطه، ثم أصعد في خدمته إلى بغداد، وكذا صدقة بن منصور، وردَّ السلطانُ على ابن مَزْيَد وأولاده وإخوته الأسرى، وقَبْلَ إصعادِ السلطان أنفذَ من واسط والدةَ الخليفة ووالدةَ الأمير أبي القاسم علاء الدين بن ذخيرة الدين وصلف ـ وقيل: اسمها وصال القهرمانة ـ وتبعهم خلقٌ كثيرٌ من أهل بغداد، وكانوا في أسر البساسيري ومعه في الوقعة فأُخِذوا.

**ذكر ما جرى لابن البساسيري الصغير:**

كان نائباً عن أبيه في الرحبة، فوصله الخبر في يوم الأحد الحادي والعشرين من ذي الحجة، فارتاع وخاف المقام، وبلغه أن مهارشاً قد خرج من بغداد في ثلاث مئة غلام من الأتراك يريد الرحبة، فأراد أن يقصد بالِس، وكانت لعطية بن الزَّوقلية الكلابي، وكان بينه وبين أبيه مودةٌ وصداقة، وأغارت بنو شيبان على سواد الرحبة وأحرقوا، فخاف الصبيُّ أن يخرج لقبيح فعل بني شيبان وغَدْرِهم، فاستدعى وجوههم وقال: تسيرون معي إلى بالِس، وجعل لهم على ذلك خمس مئة دينار، واستحلفهم وتوثَّق منهم، وأودع الذهب عند مَنْ رضوا به، فإذا قاربوا بالِس رجعوا، واستدعى جماعةً من

العجم ممن استأمن إلى أبيه، فأعطاهم ثلاثة آلاف درهم وسلاحاً، فأظهروا طاعتَه، وأبطنوا مخالفتَه، والتجؤوا إلى محلة في الرحبة يُقال لها: القصر، وعليها سور، واجتمع القاضي وابن محكان وأبو الكرم كاتب الديوان على الخطبة للسلطان طُغْرُلْبَك والقائم، ولم يتحقَّقوا حقيقة الحال، إلا أن مهارشاً البدري قصد الرحبة في سرية، وخرج ابن البساسيري في خامس عشرين ذي الحجة مبرزاً، فأغلقوا وراءه الأبواب، ورماه العجم الذين أعطاهم الأموال والسلاح والنُّشَّاب، وسبُّوه وشتموه، وخرج معه خلقٌ كثير من أهل البلد كانوا مع أبيه، وسار طالباً بالِس، ولم يقنع بنو شيبان بما قرَّره لهم، فتخطَّفوا(١) الناسَ ونهبوهم، ولو لم يكن في جماعة كثيرة لنهبوه، ووصل إلى بالِس واجتمع بعطية ولم يتعرَّض له، كلُّ هذا وما عند أحدٍ خبرُ ما جرى للبساسيري، إلا أنهم على انتظاره، وابنُه يُمنِّيهم رجوعَه، ثم سار يطوي المنازل إلى حلب، فأقام على بابها.

وفي هذا الشهر عزل القائمُ أبا الحسن محمد بن أحمد بن المهتدي عن خطابة جامع المنصور؛ لأجل خطبته لصاحب مصر، وولَّى مكانه أبا علي الحسن بن عبد الودود بن المهتدي، وخلع عليه خِلْعةً سوداء، وبرز له توقيع، فيه خرجت الأوامرُ الشريفة، والمراسيمُ العالية المتقنة(٢) أنفذها الله شرقاً وغرباً، وبُعداً وقُرباً، بترتيب الشريف الجليل بهاء الشرف ـ أدام الله تأييده ـ في الخدمة وإقامة الدعوة الشريفة على المنبر بالمسجد جامع المنصور ـ صلواتُ الله على الآمر ببنائه ـ وأن يعتمد على المداومة في الخدمة وإيصالها، فليُتمثَّلِ المأمور، وليُعتمَدِ المرسوم إن شاء الله تعالى.

**ذكر ما اعتمده الخليفة بعد رجوعه:**

لمَّا عاد إلى بغداد من الحديثة لم ينَمْ على وطاء، ولم يدَعْ أحداً يحمل إليه فطوره؛ لأنه نذر أن يتولى ذلك بنفسه، وعقد مع الله العفوَ عمَّن أساء إليه، والصفحَ عن جميع من تعدَّى عليه، فوفى بذلك، وأشرف في بعض الأيام على البنَّائين في داره، فأمر الخادم بإخراج واحد منهم، ثم رآه في الدار، فقال للخادم: أعطِه ديناراً وأخرِجْه،

(١) أي: قتلوهم وسلبوهم. وتحرفت لفظة فتخطفوا في الأصل (خ) إلى: فتحفظوا.
(٢) في (ف): المتقنة!

وتهدَّده إن عاد ثانياً. فأتاه الخادم وأعطاه ديناراً، وقال: إن عُدْنا رأيناك ها هنا قتلناك. فسأل الخليفةَ عن السبب، فقال: إنَّ هذا أسمعني يومَ خروجي من الدار الكلامَ الشنيع، وما كفاه حتى تبِعَني إلى المكان الذي بِتُّ فيه في المشهد، وجعل يشتمني، وما كفاه حتى تبِعَني إلى عَقْرَقُوف يُسمِعني ما أكره، فأمسكت عن معاقبته رجاءَ ثواب الله تعالى، وما عاقبتُ مَنْ عصى الله فيَّ بأكثرَ مِنْ أن نُطيعَ الله تعالى فيه.

وفيها كان بمكة رُخْصٌ لم يُعهَدْ مثلُه، بلغ البُرُّ والتمرُ مئتي رطل بدينار، وهذا غريب في ذلك المكان.

وفيها قُتِلَ أرسلان التركي أبو الحارث البساسيري، وكان يُلقَّب بالمظفَّر، وكان مُقدَّماً على الأتراك، لا يقطع القائم أمراً دونه، فتجبَّر وطغى، وأراد نقل الدولة؛ لفسادِ نيَّتِه وخُبثِ طويَّتِه، فقبِلَها وفعل ما فعل، فقُتِلَ أقبحَ قتلة، ويقال: إنهم أحرقوا جسده، وأطعموا بعضَه الكلاب.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: لم تَزلِ الأخبارُ متواترةً من ناحية العراق بظهور المظفَّر أبي الحارث أرسلان البساسيري، وقوَّةِ شوكته، وغلَبَةِ أمره على الإمام القائم بأمر الله، وقَهْرِ نُوَّابِه، وامتهانِ خواصِّه وأصحابه، وخوفِهم من شرِّه، حتى أفضى أمرُه بأخذ الجائي من حريم الخلافة لأدافع عنه، وهو واحد من الغلمان الأتراك، عَظُم أمرُه، واستفحلَ شأنُه؛ لعدم نُظرائه من الغلمان الأتراك والمُقدَّمين، فاستولى على العباد والأعمال[1]، ومدَّ يده في جباية الأموال، وشاع بالهيبة أمرُه، وانتشر ذِكرُه وتهيبته العرب والعجم، ودُعي له على كثير من منابر العراق والأهواز، وقد ذكرنا سيرته مفصَّلة.

[وفيها تُوفِّي]

## الحسن بن أبي الفضل[2]

أبو علي الشَّرْمَقاني، ـ وشَرْمَقان: قريةٌ من قرى نيسابور ـ وقدم بغداد، وكان حافظاً للقرآن ووجوه القراءات، زاهداً، عابداً، ورعاً، سليم الصدر، طاهر البدن[3]، كان يخرج إلى دجلة فيقعد عند أقوام يغسلون الخسَّ فيأخذُ من الورق ما يحدره الماء [قال

---

(١) في (ف): والأموال.

(٢) تاريخ بغداد ٧/ ٤٠٢، والمنتظم ١٦/ ٥٧-٥٨.

(٣) في (م١): البطن.

الخطيب: وكان الشَّرمقاني] يقرأ على ابن العلَّاف، و[كان] يأوي إلى مسجد بدرب الزعفران غربي بغداد، فاتَّفق أنَّ ابن العلَّاف خرج يوماً يتوضأ على دجلة، وكان زمان مجاعة، فرأى الشَّرْمَقانيَّ يأخذ ما يرمي به أصحابُ الخسِّ من الورق فيأكلُه، فشقَّ عليه، وكان ابن العلَّاف ينبسط إلى [أبي القاسم] رئيس الرؤساء الوزير، فأخبره بحاله، فقال: نبعث له شيئاً. قال: ما يقبل. فقال: نتحيَّل فيه. فقال لغلام له: اذهَبْ إلى مسجد الشَّرْمَقاني، واعمل لغَلَقِه مفتاحاً من حيث لا يشعر. ففعل الغلام، فقال له: احمِلْ في كل يوم ثلاثةَ أرطال خبز ودجاجةً مشوية وقطعةَ حلوى بسُكَّر. فكان الغلام يرصده، فإذا خرج من المسجد فتح الباب وترك ذلك في القبلة، وكان الشَّرْمَقاني يتعجَّب ويقول: المفتاح معي، وما هذا إلا من الجنة. فسكتَ ولم يُخبِرْ أحداً خوفاً أن ينقطع، فأخصب جسمُه وسمِنَ، فقال له ابن العلَّاف: قد سَمِنْتَ [وحَسُنَ حالك] فأيش تأكل؟ فأنشده يقول: [من البسيط]

مَنْ أطلعوه على سرٍّ فباحَ به ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا

وأخذ يُورِّي ولم يُصرِّح، [ويُكني ولا يُفصح]، فلم يزَلْ به حتى أخبره وقال: هذه كرامة لي، يبعثها اللهُ لي كلَّ يوم من الجنة، كذا وكذا. قال: من أين لك ذلك؟ قال: لأنَّ الباب مغلق، والمفتاح معي. فقال: ينبغي أن تدعو للوزير [ابن المُسلمة] ففهم، وانكسر قلبُه، وتنغَّص عيشُه، وتوفِّي عقيب ذلك اليوم السابع [سمع ابن شاهين وغيره، وكتب عنه الخطيب وغيرُه.

وفيها تُوفِّي]

## أبو البركات، عَقيل بن العباس(١)

ابن الحسن بن أبي الجِنّ الحسين بن علي، وُلِدَ بدمشق سنة اثنتين وتسعين وثلاث مئة، وولي نقابة العلويين بها، وكان جواداً سمحاً، توفي بطرابلس، وحُمِلَ إلى دمشق ودُفِنَ بها، رحمه الله تعالى. [قال ابن عساكر: حدَّث عن عبد الله بن أبي كامل وغيرِه، وروى عنه أبو القاسم النسيب شيخ الحافظ ابن عساكر].

(١) تاريخ دمشق ٤١/ ٢٥-٢٦.

## علي بن الحسين بن هندي[١]

قاضي حمص، [ذكره الحافظ ابن عساكر، وقال]: ولد سنة أربع مئة، وبرع في علم الأدب والشعر، وتوفي بدمشق، ودُفِنَ بباب الفراديس، ومن شعره: [من الكامل]

يا ضاحكاً بمن استقلَّ غُبارهُ سيثورُ عن قدميكَ ذاكَ العِثْيَرُ[٢]
لا فارسٌ بجنودها منعَتْ حمى كسرى ولا للرُّومِ خلَّدَ قيصرُ
جددٌ مضَتْ عادٌ عليه وجُرْهُمٌ وتلاه كهلانٌ وعقَّبَ حِمْيَرُ
وسطا بغسَّانَ الملوكُ وكِنْدةٌ فلها دماءٌ عندهُ لا تثأرُ
لعبَتْ بهم فكأنَّهم لم يُخلَقوا ونُسوا بها فكأنَّهم لم يُذكَروا

## علي بن محمود بن إبراهيم[٣]

أبو الحسن، الزَّوزَني، المنسوب إليه الرباط المقابل لجامع المنصور، والرباط إنما بُني للحصري، والزَّوزَني صاحب الحصري، فنُسِبَ إليه، ولد عليٌّ سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة، وصحب الحصري، وكان يقول: صحبتُ ألف شيخ، وأحفظ من كل شيخ حكاية. وكانت وفاتُه في رمضان، ودفن بباب الرباط.

## قريش بن بدران

أبو المعالي، ويُلقَّب بعلم الدين، أمير بني عقيل، كان داهيةً، بخيلاً، سفَّاكاً للدماء، بعيدَ الغور، غداراً، حمله شحُّه وقلَّةُ دينه على موافقة البساسيري على تغيير الدولة العباسية، شرهاً إلى ما كان في دار الخلافة، وطمعاً في الزيادة من صاحب مصر، وفعل تلك الأفاعيل، وذمَّ الوزير رئيس الرؤساء وغدر به، وسلَّمه إلى البساسيري، حتى فعل به ما فعل، ولم يمنعه، ولو منعه ما خالفه، وكان قد احتال على مهارش، وقال له: خُذِ الخليفة، وتعال إلينا، وكان قصدُه أن يُدخل الخليفةَ إلى الجِفار ويُسلِمَه إلى صاحب مصر، فبعثه السلطان، وخلص الخليفة، ولم يستصحِبْه البساسيري

(١) تاريخ دمشق ٤١/ ٤٢٧_٤٣٣ .
(٢) العِثْيَر: التراب. تاج العروس (عثر).
(٣) المنتظم ١٦/ ٥٩ ، وتاريخ بغداد ١٢/ ١١٥ .

لأجل عسكره، فإنه كان شحيحاً والعرب ذامةٌ له، متفلِّلةٌ عنه لأجل اسمِه وذِكْرِه، فبذل له أن يُقطِعه أملاكَ الخليفة وإقطاعَه، وأن يكون ما عدا ذلك بينهما نصفين من البلاد والغنائم، وأن لا يكون لقريش ذمامٌ ولا إجارةٌ عليه، وتحالفا على ذلك وتكاتبا وتعاهدا، فلمَّا دخلا بغداد تسلَّم قريش الأملاك والإقطاعات التي للخليفة، وخرج أصحابه إلى الضياع، فصادروا أهلها، وأخذوا ما قدروا عليه، ولمَّا استوليا على دار الخليفة اقتسما ما كان فيها من مال وجوهر وقماش وثياب وخيل، وطلب قريشٌ أن يُسلِّم إليه نصف الإقطاعات المنحلَّة عن الغلمان البغدادية وغيرهم، فامتنع البساسيري من ذلك، ثم اتَّفقا على الثلث، إلى أن وصل السلطان البلاد، فزال ذلك كلُّه، ودخل الخليفةُ إلى داره، وقُتِلَ البساسيري، ومات قريشٌ بالموصل خائفاً من السلطان، وقام بعده ولده مسلم، وكنيتُه أبو البركات. وقيل: إن قريشاً مات في السنة الآتية، وكان السلطان قد أباح دَمَه، وقال: لا عهدَ له عندي ذاك الكَذَّاب الغَدَّار المستبيحُ أموالَ الخليفة وبُلَغَه، فمات في صفر.

## السنة الثانية والخمسون والأربع مئة

فيها في صفر نزل عطية صاحب بالِس إلى الرحبة وحصرها وفتحها، فلمَّا دخلها أحسن معاملة أهلها، وخطب للمستنصر بعد أن كان قد خطبوا فيها للقائم والسلطان.

وفي يوم الخميس سابع عشره دخل السلطانُ بغداد مصعداً من واسط، وفي خدمته أبو كاليجار هزارسب، وأبو الأغر بن مَزْيَد، وأبو الفتح بن وَرَّام، وصدقة بن منصور بن الحسين، وجلس الخليفة للسلطان، ووصل إليه يوم الاثنين الحادي والعشرين منه، وخلع عليه عمامةَ قصب مُذْهَبة مينا، وفَرَجية ديباج مُذْهَبة، وعمل الخليفةُ سِماطاً عظيماً في رُواقِ رَوْشَن المكتفي المشرف على دجلة بعد أن أُعيدت شرافاته التي قلعها البساسيري، وحضر السلطانُ ومَنْ سمَّينا، واستحلفوا على طاعة السلطان والخليفة وخلع على الأمراء.

وفي ثاني ربيع الأول توجَّه السلطان إلى الجبل، وتأخَّر عميد الملك بعده ليدبر الأمور، ثم لحق بالسلطان بعد أن دخل على الخليفة وخدمه، فشكره وخاطبه بالجميل الذي شرح صدره، ولقَّبه سيِّدَ الوزراء مضافاً إلى عميد الملك.